أيها السكان الأصليون في جميع أنحاء العالم:

اتحدوا..!

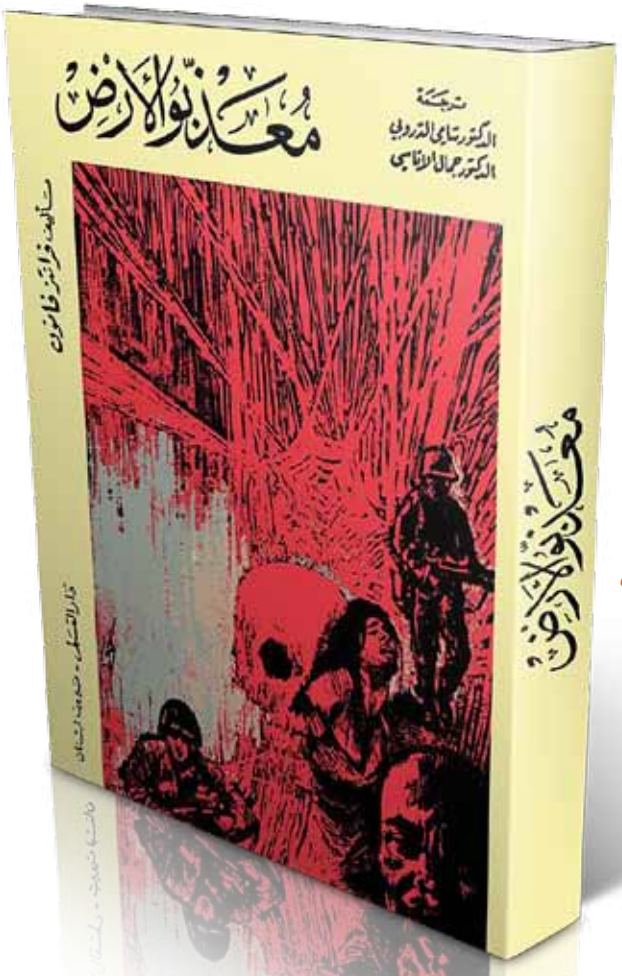

قراءة في كتاب:

(معذبو الأرض)

عرض:

أ. عبدالله الشباني

المؤلف:

فرانز فانون.

تقديم:

الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

ترجمة:

د. سامي الدروبي, د. جمال أتاسي

الناشر:

دار القلم, لبنان, بيروت.

كان يمكن أن يكون هذا الاستهلال عنواناً أجمل لكتاب فانون الذي سنعرضه في هذه الإطلالة، والذي هو أشبه بقراءة في علم الاجتماع لواقع الاستعمار، وسنن التحرّر.

يرسم فرانز فانون في هذا الكتاب مشهداً دراميّاً لحالةٍ بشعةٍ من الاستعباد الأوروبي للقارة الإفريقية، فهو يشرح فضائح المستعمرين، ليس ليظهرها فقط؛ وإنما لينبّه (معذبي الأرض)- كما أسماهم- على هذه الأساليب والمؤامرات؛ ليزيلوا الغشاوة عن أعينهم، ويدخلوا التاريخ من جديد بعد أن أخرجهم المستعمرون منه.

يمكن أن نضع نقاطاً إجمالية لفلسفة ضياع إفريقيا في قبضة الاستعمار- كما يراها المؤلف- قبل أن ندخل في العرض التفصيلي، وهي تتمثل في ثلاث نقاط: الزعيم، عبادة الشخص، الثقافة الغربية وعدم الرجوع إلى الماضي البعيد للثقافة الإفريقية، حيث يذكر فانون أنّ الثقافة الحقّة هي التي تنشأ في ظلّ الثورة والنار حامية.

قسّم المؤلف كتابه إلى عدة فصول، هي: في العنف، الانطلاق العفوي.. عظمته ومواطن ضعفه، مزالق الشعور القومي، في الثقافة القومية، فجر إفريقي، الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرير.

ونستعرض فيما يأتي أهم ما ورد فيها من آراء ورؤى للمؤلف.

يشير فانون إلى أنّ منسوبي الأحزاب السياسية بفعل طبيعة تركيبتهم، التي تجمع بين التنشئة التعليمية في بلد المستعمِر، والانتماء إلى البلد المستعمَر، تنقلب جهودهم ديناميكيّاً إلى تقويض قوام الأمّة ومسخ هويتها

في العنف:

يبدأ الكتاب بعرض عقدة الاستعمار النفسية، وهي تسويغه لجرائمه باعتباره السكان الأصليين ليسوا بشراً، وينزع عنهم الأهلية في إدارة شؤونهم، فيحكي قول المستعمر عنهم: (لا بد أنّ القشرة الدماغية لدى أهل الجزائر متخلّفة النمو!)، (إنّ الإفريقي لا يستخدم الفصّين الجبهيين في الدماغ إلا قليلاً جدّاً!).

أوّل عنوان يضعه المؤلف في الكتاب هو: (في العنف)، فهو يراه استراتيجية للانعتاق لا يجدي غيرها مع الاستعمار، وفي سياق فلسفتها يقول: (ومكافحة الاستعمار لا تكون إلا بإحلال نوع إنساني مكان نوع، ويقتضي صراع قوتين متعارضتين)، (فتغيير المستعمر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر).

يبدأ المؤلف بعد ذلك بعرض الأفكار التي جاء بها المستعمر، ومن ذلك: (الفردية وتحقيق الذات) بوصفها مذهباً يغرسه في نفوس المستعمَرين؛ ليكسر من خلاله مفهوم: (الجموع الكفاحية)، ويطيش بالإرادة القومية، ويهتك

سلطة الجماعة.

ويعــرّج المؤلف في أثناء فصل: (في العنف) على طبيعــة المنظمات السياســية، والأهداف الحقيقية وراءها، فهي تقوم بأدوار رعاية النظام الاســتعماري، وذلك عبر المقايضة بالمزيد من الســلطة مقابل رفض العنف في التغيير وحفظ أصول النظــام الجديد، إنها تتجه إلى الانتخاب لكــي تصنع التغيير، فتقرر بــأنّ لكلّ فردٍ صوتاً فقط!

غالب هــذه الأحزاب تســتفيد من الوضع الاســتعماري الراهــن عبر حزمــة تحقّقت لها من المصالح، ويوضح فانون في هذه الســردية دَوْر الحــزب الوطني الحاكم، والمتمثل في وقف الكفاح ضدّ الاســتعمار عبر لعبة: (التســوية)، بــأنّ يقوم بــدَوْر الوســيط بين قوى الشــعب الثائرة والمســتعمِر، و (اللاعنف) الذي ينادون به يفسّــرونه: (بأنه حركة لتســوية المســألة الاســتعمارية على مائدة خضــراء قبل إهراق الدم)!

الوسائل التي يجابه بها المستعمر الحركات التحررية لم تعد محصورة في استخدام الأسلحة المتطورة، فالقصف بالمدافع وسياســة الأرض المحروقــة قد حــلّ محلّها سياســة الإخضاع الاقتصــادي، وأصبحت الأراضي المســتعمرة ســوقاً لضخ منتجات الدول المســتعمِرة بفعل الرأســمالية وجماعات المصالح، فالذي يحصل عند وقوع اختلال في واقع النُّظُم البرجوازية أن يُضيّق عليها اقتصاديّاً.

والحقيقــة الصارخــة أنّ دوائــر العمــل السياســي، في دول العالم الثالــث، لا تعدو أن تكون مطابخ للتسوية مع المستعمِر، يمثل فانون لنجاعة مثل هذه الطريقة في تنويم الشعب بأن يُسمح للســيد ليون مبا Léon M›ba (رئيس جمهورية الغابــون) أن يقول، في كثيرٍ من الأبّهة والعظمة، حين وصوله لباريس في زيارة رسمية: (لقد استقلّت الغابون، ولكن بين الغابون وفرنسا لم يتبدل شــيء، بل كلّ شيء يســتمر كما كان. والواقــع أنّ التبدّل الوحيد الــذي تحقّق هو أنّ السيد مبا قد أصبح رئيس الجمهورية الغابونية، وأنّ رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله!).

يتحدث فانون بعد ذلك عن تفعيل المستعمر لأداة (التعايش الســلمي) من قِبل الرأســمالية الدوليــة التي تقودها أمريكا في الحرب الباردة، فليس عندهم مانع من أن يهبوا شــعوب العالم الثالث استقلالهم، أو ترفع أمريكا عقيرتها بحقّ الشــعوب في تقرير مصيرهــم، لكن الهدف هو الحفاظ على توازن المستعمرة في هذا الظرف الدولي، فاتجاه المستعمرات إلى العنف والحروب الوطنية يشكّل تهديداً رهيباً، واستمرار الثورات يُحدث خللاً في الحياة الاقتصادية المستعمرة، وهذا الذي تخشاه الإمبريالية.

جماهيــر الشــعب المضطهد هــم الرقم الصعــب في معادلة التحريــر الحقيقي! والأمّة الجديــدة تنبثــق إما بعنــفٍ يقوم به الشــعب المستعمَر، أو بثمرة عنفٍ تقوم به شعوبٌ أخرى، فيضغط على النظام الاستعماري، عملية التحرر الحقيقي لا تتحقق حتى يُعمّق في وعي الشعوب أنّ الحياة معركة لا تنتهي، فالشــعب يُدعى في عهد الاســتعمار إلــى الكفاح ضد المســتعمر الغاشــم، حتى إذا تحقّق التحرر الوطني أصبح يُدعى إلــى الكفاح ضدّ الفقر، ضدّ الأمية، ضدّ التخلّف الاقتصادي، فالكفاح يظلّ مستمراً.

وينبّــه فانون على أنّ للعنــف ثماراً في بناء شخصية المستعمَر، منها:

١ - أنــه إذا كان الاســتعمار ينشّــط الانقســامات؛ فالعنف ضد الاســتعمار يوحّد الأفراد على الصعيد القومي.

٢ - أنّ العنف يزيل من نفس المستعمَر مركّب

عملية التحرر الحقيقي لا تتحقق حتى يُعمّق في وعي الشعوب أنّ الحياة معركة لا تنتهي... ضد المستعمر الغاشم... ضدّ الفقر، ضدّ الأمية، ضدّ التخلّف الاقتصادي

النقص الذي ينشأ بإزاء الذات الاستعمارية.

٣ – أنّه يغرس في نفوس الشعب أنّ فضل عملية التحرير يرجع للجميع، وأنّ وعياً جمعيّاً يمنع من أن يستغفل أحدٌ الناسَ وينسب الفضل لنفسه أو لحزبه وجماعته.

٤ – أنّ العنف يحقن شخصية الشعوب بمصل المناعة والإباء، فيستعصي على الخنوع للحكم الديكتاتوري.

الانطلاق العفوي.. عظمته ومواطن ضعفه:

ويُعَنْون فانون فصلاً بعد ذلك حول (الانطلاق العفوي.. عظمته ومواطن ضعفه)، ويلفت الانتباه إلى تزامن نشأة الأحزاب السياسية في واقع الاستعمار بعودة المثقفين الذين تلقّوا تعليمهم في بلد المستعمِر، وهذه النخبة تخلع على التنظيم قيمة كبيرة، وكثيراً ما تتغلب عبادة التنظيم على الدراسة العقلية للمجتمع المستعمَر، ويشير فانون إلى أنّ منسوبي الأحزاب السياسية بفعل التنشئة التعليمية في بلد المستعمِر؛ تنقلب جهودهم ديناميكيّاً إلى تقويض قوام الأمّة ومسخ هويتها، ومعاداة بِنَى المجتمع القديم، كما أنّ الاحتلال في الوقت نفسه يقف وراء القادة التقليديين وبعض زعماء القبائل؛ ليجعل منهم طبقة عازلة عن تأثير حركات التحرر الوطني، وهنا يعوّل فانون كثيراً على دَوْر قاطني الأرياف في مجابهة الاستعمار، فهو يرى أنهم مجتمعٌ عفويٌّ، ما زال يعيش في سلامةٍ من آفات الاستعمار، ويمتلك مقوماته الذاتية، ويعيش في إطار الجماعة، ويتفاعل معها.

وفي هذا السياق؛ يذكر المؤلف من الأساليب الاستعمارية الرأسمالية القذرة، التي كان يستخدمها المستعمر لإعطاء نفسه مشروعية، خلق حزب جديد، سُمّي: (حزب المحرومين)، من عناصر غير منظّمة من بين صفوف البروليتاريا الدنيا، والغرض منه أن تكون استفزازاته حجّةً تتذرع بها سلطة الاستعمار للمحافظة على النظام.

ومن وجهة نظري؛ أنّ هذا الأسلوب الاستعماري- الذي أشار إليه فانون- أسلوب متجدّد، لا يزال يُخلق ويُهيأ له الواقع للتذرّع به في تدخّلٍ سافرٍ في شؤون العالم الثالث، ومنه إفريقيا، ومن ذلك ما نشهده اليوم من تذليل الطرق أمام موجات الغلوّ والتطرف العاتية في إفريقيا وغيرها؛ لتكون ذريعة لاستئصال أي حراك فتيٍّ يناكف المطامع الغربية ويحقّق السيادة الشعبية.

أبدع فانون في عرض سيناريو مشهد الثورة، وكيف أنّ الفلاحين يستقبلون بوعيهم طغيان الاستعمار على بلادهم بِردّة فعلٍ عفوية عنيفة، يستعصي على المستعمِر فَهْم دوافعها وإحكام السيطرة عليها، يصف فانون ذلك فيقول: (إنّ الأنباء تصل إلى الأرياف مضخّمة، مضخّمة تضخيماً كبيراً: الزعماء اعتُقلوا، الرشاشات تقذف الناس برصاصها، دم الزنوج يُغرق المدينة، المستوطنون يستحمّون بالدم العربي. وتتفجر مراجل الحقد المتجمّع المكظوم، فيهجم الفلاحون على مخفر الشرطة المجاورة فيحتلونه... وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل

إلى المنطقة فِرقاً من جيوشها، وتأخذ الطائرات تقذف قنابلها، وهكذا ترتفع راية الثورة).

ولكن سرعان ما يعترض هذا الوهج الثوري مشكلة عدم الانسجام بين طبقات الأمّة، بين أهل الريف والمدينة، ولا سيما رواد الأحزاب الوطنية، وتستمر حالة التوجس إلى ما بعد الاستقلال، فكما أنّ أصحاب الأحزاب الوطنية لم يشاركوا في العمل المسلّح للثورة القادمة من الريف، كذلك أهل الأرياف لم يحصلوا على الوعي السياسي الكافي ليستوعبوا مشروع الكفاح وأهدافه، فيستغل المستعمِر هذا الفراغ في نسيج الأمّة؛ ليعيد ترميم النظام الاستعماري من جديد.

ويمضي المؤلف في استعراض سيناريوهات الثورة على المستعمر، فيضع احتمالية بروز دَوْر بعض النقابات العمّالية، ويذكر أنها يمكن أن تعيق الوضع الاقتصادي العام في المستعمرة عبر إضرابات عامّة.

وينتقل لتفصيل موقف الأحزاب الوطنية، ويبيّن انقسامها بخصوص واقع الاستعمار إلى قسمين: أحدهما يريد تحطيم الاستعمار، والآخر يريد التفاهم معه بالحسنى، تزداد وتيرة الخلاف بينهما، حتى يجد القسم الأول نفسه غير مرغوبٍ فيه، وقد يُضيّق الخناق عليه بفعل تواصل القسم الأول مع المستعمر، فيضطرون إلى الخروج من المدينة إلى الريف، عندها يدركون الواقع الحركي الحقيقي للثورة، فتبدأ حركة انبعاث الأمّة التي تعني وحدة الهدف، وهو جلاء الاستعمار، فتتّحد الجماعة عليه، وتزول الخصومات الجانبية وتتلاشى، فيبدأ الصراع مع قوات المستعمر التي تمتلك التكنولوجيا المتطورة للسلاح، فتحصل الصدمة الأولى؛ مما يدفع نحو توجّه الجموع إلى استراتيجية حرب العصابات.

ثم يكشف فانون افتقار الجموع للوعي الثوري الذي يُعدّ أداة استراتيجية لضمان استمرارية الثورة، وفي أثناء ذلك تبدأ آلة الاستعمار باستخدام التقنيات التخريبية لتضييع الجهود وتفتيت الجموع، يذكر فانون بأنه- أي الاستعمار-: (يعمد إلى «الأساليب السيكولوجية» لتضليل الناس، وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها، حتى لينجح في ذلك أحياناً بدفع بعض الأفراد إلى ارتكاب أعمال استفزازية)، بذلك تدخل الثورة مرحلة جديدة؛ مما يحدو بفانون أن يؤكد أنّ معركة التحرير ليست معركة واحدة، إنما هي عدة معارك لا تُعدُّ واحدةٌ منها حاسمة، وهذا المعنى في طبيعة المواجهات في العالم اليوم يُعدُّ مهمّاً في بناء عقلية المسلم المعاصر، وعدم إدراكه يُدخل الأمّة في دائرة مفرغة من الجهود المبعثرة التي تُستنزف ذهنيّاً في مرحلة من مراحل الصراع، ولا تمتلك الوعي الكافي لكي تتجاوزها.

مزالق الشعور القومي:

يمضي فانون بعد ذلك في مبحث أسماه: (مزالق الشعور القومي)، فيصف ما انتهت إليه المرحلة السابقة بأنّ يرحل الاستعمار كوجودٍ فعلي، لكن بعد أن صنع ربائبه ممن أسماهم: (برجوازية الوطنية)، وهي طبقة تقوم بدَوْر الوساطة بين البلد المستعمَر وقادة الاستعمار، وتوثق الارتباط الاقتصادي بينهما، ويصف فانون نفسية هذه الطبقة بأنها نفسية رجال أعمال لا روّاد صناعة، فليس هناك توجّهٌ نحو الإنتاج والابتكار والبناء والعمل.

ينتقل فانون- بعد ذلك- لعرض طبيعة الوحدة الإفريقية بعد عهد الاستقلال، ويبين أنّ القادة الجدد كان من المفترض أن يقوموا بعملية تأميم حقيقيٍّ، يخلق صبغة جديدة للأمّة الإفريقية من عرب وأفارقة وما بين ذلك، ولكنهم

حرصـــوا فقط على تملّك الســـلطة، فأصبحت الوحدة من أحـــلام اليقظة، وهنا يرى الإفريقي أنّ مصالحـــه لا تُحمى من خـــلال هذه الوحدة؛ في مقابل أنه يجد الرجوع إلى الإقليمية والقبلية أوفر لحظّه وأحصن لحقوقه.

يبيّن فانون- بعد ذلك- أنّ أجندة الاستعمار الجديـــد (ما بعد الاســـتقلال) تلعـــب على وتر الطائفيـــة فـــي تمزيق لُحمـــة المجتمعات، وأنّ الديكتاتوريـــات ســـاهمت في طرد الشـــعوب الإفريقية من التاريـــخ لمّا ملكت مقاليد الأمور، وبعض البلدان التي استقلت حديثاً كانت تستعمل وســـائل لخداع الناس؛ عبر الإشـــراك الباهت للناس فـــي الحيـــاة السياســـية، ولا تريد منه الحكومات إلا كســـب مزيدٍ من الشرعية وتبرير مواقفها الانتهازية فقط.

ويعبّر فانون هنا تعبيراً جميلاً يجلّي الحقيقة الفعلية لإشراك الشـــعوب في الحياة السياسية فيقول: (إشراك الشـــعب في الحياة السياسية ليس بـــأن تردّه طفلاً؛ بل بأن تجعله راشـــداً!)، ثم يضع الإجراء الملائـــم من خلال عرض دَوْر الحزب السياسي في إشراك الشعوب في الحياة السياســـية، فأعضاء الحزب ينبغـــي أن ينفكوا عن السلطة، وينتشـــروا في جميع أنحاء البلاد للاقتـــراب إلى جميـــع أطياف الشـــعب وتبليغ احتياجاته للسلطة.

كما ينفي المؤلف فكرةً روّج لها الاســـتعمار في وعي الســـكان الأصليين، وهي: أنّ (الشعوب جاهلة لا تستطيع قيادة نفسها)، فمعادلة الشعب لا بد أن تُضمّ للكيان السياسي فيما بعد التحرير.

يركّز المؤلف بعد ذلك في تفعيل دَوْر الشباب في انبعـــاث الأمّة، وصناعة الكيان السياســـي الراقـــي، ويقـــول كلاماً جميلاً عـــن المنظمات الشـــبابية التي تنشـــأ في البلـــدان المتخلّفة، ويتصور قادتها أنّ رســـالتهم على غرار رســـالة قادة المنظمات الشـــبابية في الدول المتطورة، فيقول: (إنّ شبيبة البلد المتخلّف شبيبة عاطلة عن العمل في كثيرٍ من الأحيان، فيجب شـــغلها بالعمل أولاً وقبل كلّ شـــيء... يجـــب ألا تُوجّه شبيبة إفريقيا نحو الملاعب الرياضية، بل نحو الحقول، نحـــو الحقول ونحو المـــدارس... إنّ المفهوم الرأســـمالي للرياضة مختلف اختلافاً أساســـيّاً عن المفهوم الذي يجـــب أن تأخذ به البلدان المتخلّفة).

ولكي يقوم كفاحٌ شـــعبيٌّ حقيقـــيٌّ ينبغي أن يُبني ذلك على معركةٍ يُشارك فيها الجميع، حتى نضمن السلامة العامّة، والخلاص العامّ يجب أن يكون في وعي الشعوب.

وفي سياق حديث المؤلف عن دَوْر (الجيش الوطني) في حفظ بيضة الأمّة؛ ذكر أنه يجب أن يُعبّأ وجدان الجندي بالوعي القومي الذي يجعله يدافع فـــداءً لبلده ضدّ العدو؛ لا رهناً لإشـــارة ضابط من الضباط.

(لقد رأينا أنّ الدعوة القومية هذه الأنشودة الرائعة التـــي أثارت الجماهير على المتســـلط الغاشـــم تتحلل غداة الاســـتقلال؛ لأنها لم تكن عقيدة سياسية، ولم تكن برنامجاً اجتماعيّاً، فإذا أردنا حقّاً أن نجنّب البلاد أمثال هذه النكســـات وهـــذه الوقفات وهـــذه التدهـــورات؛ كان علينا أن نســـارع إلى الانتقال مـــن الوعي القومي إلى الوعي السياسي والاجتماعي. لا وجود للأمّة إلا ببرنامج تُنضجه قيادة ثورية، وتعتنقه الجماهير اعتناقـــاً قائماً على الفهم الواضح والحماســـة الثابتة).

اختتم فانون كتابـــه ببيان ارتباط قيام الأمّة بانتعاش الثقافة المصاحبة لتكوينها، وحضّ على حفظها وتعليمها للأجيال ■